إشكالية التراجع الفكري والحضاري: دراسة تحليلية في فكر الشيخ محمد الغزالي (1917-1996 م)

The Issue of Intellectual and Civilizational Decadence: An Analysis of Syeikh Muhammad al-Ghazzāli's Discourse

Noor Amali Mohd Daud
Department of Usuluddin and Comparative Religion
AHAS-Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences
International Islamic University Malaysia
amali@iium.edu.my

https://doi.org/10.22452/usuluddin.vol50no2.8

Abstract

The issue of intellectual and civilizational backwardness 'takhalluf' is one of the most important issues debated in the modern Islamic discourse, especially in the early twentieth centuries. What are the factors underneath the decline of the Muslim Ummah?How it affect its present conditions?, and how to resolve the problem and bring about strategic transformation to this current situation? This article attempts to investigate the issue from Muhammad al-Ghazzālī's scholarly insight, focusing on some of main factors deliberated by al-Ghazzālī as significant factors to Muslim decline and backwardness in the intellectual and civilizational realms. Al-Ghazzālī identified two major causes of decadence, namely internal as well external factors. Al-Ghazzālī also offers his intellectual insights on remedies for the crisis towards the betterment of Muslim nations.

Keywords: Backwardness, Muhammad al-Ghazzālī, internal, external, remedies

الملخص

إن إشكالية التأخر الفكري والحضاري من ضمن المحاور الأساسية التي حظيت باهتمام المثقفين خاصة في بدايات القرن العشرين. فما هي العوامل التي أدت بالأمة الإسلامية إلى التأخر؟ كيف أثرت هذه الإشكالية في تشكيل واقعها المشاهد؟ وما السبيل إلى الخروج من هذا المأزق وإجراء عمليات الإصلاح الإستراتيجي للتصدي لها؟ فهذه المقالة تحاول بلورة هذه الإشكالية من وجهة نظر الشيخ محمد الغزالي وذلك بالتركيز على جملة من العوامل التي تَشَخَّصَها الغزالي والتي كانت برمتها أدت إلى تخلف المسلمين المعاصرين. لقد توصلت المقالة إلى أن الغزالي تعرف على عاملين اثنين أسهما في ذاك التخلف وهما العوامل الخارجية والعوامل الداخلية، كما تعرض بالذكر لجملة من الاقتراحات للخروج من هذه الأوضاع المأزومة .

الكلمات المفتاحية: التأخر، محمد الغزالي، العوامل الداخلية ، العوامل الخارجية، العلاج

مقدمة

عانت الأمة الإسلامية وما زالت تعاني من أزمات ومآزق متعددة، أخطرها التراجع الفكري والحضاري التي تمثلت واضحة ملحوظة في أبعاد حياتية مختلفة: فكرية، وسياسية، ودينية، واقتصادية، واجتماعية وغيرها. يترتب عن هذا الانهيار ضياع الأمة الإسلامية سلطتها السيادية فتصير في هامش المجتمعات العالمية. وهذه الأزمة – على حد تعبير الفاروقي– أدت بلا ارتياب إلى فقدان هيمنة الأمة الإسلامية في مجالات حياتية مختلفة. فإن غياب السلطة القيادية عن السياسة المعاصرة أدى بهم إلى أن يكونوا مذلة في يد غير المسلمين، وفقدان القوة الاقتصادية أدى بالعالم الإسلامي إلى مجرد مركز جمع منتجات الغرب وصار ديمومة الارتباط به والاعتماد عليه، وبسبب حيرة العقول واضطراب المنهج أصبحت الأمة في خواء روحي وضعف وهوان أمام تحضر الغرب[1].

يتطلب هذا التراجع تشخيص الجذور والبحث عن الحلول، وإلا لافتقد عن الأمة الإسلامية وسام الخيرية التي وهبها الله إياها[2]. فانطلاقا من الشعور بواجب إعادة الهيمنة الإسلامية وتحضرها من جديد، والغيرة الصادقة على "الأمة القطب" نرى اهتمام العلماء والمثقفين وصف حاضر الأمة الإسلامية المأزوم واستتباع جذور المشاكل والتماس الترياق، ومن طليعة هؤلاء المفكر والداعية الإسلامي المرموق واحد أعمدة التجديد الإسلامي الرئيسة الشيخ محمد الغزالي أحمد السقا (1917- 1996م)، الذي قام بدوره الريادي في هذا المجال.

دراستنا في هذا الصدد تأتي بوصفها محاولة لتسليط الضوء على بعض آراء وانطباعات الغزالي حول الأسباب الكامنة وراء هذا التراجع الفكري والحضاري والتعرض كذلك لسبل فكه للمشاكل، ساعية من وراء حصيلاتها: (أ) فهم أوضاع الأمة الإسلامية الحاضرة وهمومها ومعضلاتها، (ب) والبحث عن الاستراتيجيات لتدارك حالات الضعف والركون والتزمت، (ج) وربط الأمة الاسلامية بعنفوانها الماضي وتشجيعها على إعادة تلك الألمعية من جديد.

الأمة الإسلامية ومأزق التراجع الفكري والحضاري

إن إشكالية التراجع الفكري والحضاري –كما تعرضنا– صارت من أخطر القضايا التي حظيت باهتمام الفكر الإسلامي الحديث وتبلورت في أعمال الكثيرين من مثقفيهم. لقد حاولوا تشخيص الأسباب والبحث عن الترياق.[3] ومن خلال تتبع المراحل التاريخية التي مر بها الفكر العربي توصل المفكر العربي الحديث فهمي جدعان إلى أن أول من اهتم بهذه الإشكالية المؤرخ وفيلسوف الاجتماع ابن خلدون (1332-1406م)، وذلك انطلاقا من

---

1 Al-Faruqi, Ismail, *Islamization of Knowledge: General Principles and Work Plan* (Washington: IIIT, 1985), 11.

2 Āl-ʻImrān 4:110.

3 Mazheruddin Siddiqi, *Modern Reformist Thought in the Muslim World* (Pakistan: Islamic Research Institute, 1982), 101-104.

وعيه العميق لواقعة الانحطاط وتحليله الدقيق لجملة من الحوافز التي أسهمت في وقوعها، ما جعل جدعان إلى وضع فكر ابن خلدون حدا أو نهاية لمرحلة اختلال التوازن والانحطاط التي اجتاز بها الفكر العربي.[4]

وبفضل آراء ابن خلدون النهضوية نشأ الوعي ونما عند الدوائر العربية الإسلامية عبر العصور المختلفة تلك الرغبات المتأججة للإصلاح والتغيير والخلاص من التخلف والانحطاط. وبقدر تعلق الأمر بالنخبة المثقفة في مصر فإنه قد ظهر رجال من أمثال: الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وحسن البنا وآخرين فيما بعد والذين رددوا تلك النداءات والتي ترمي إلى ضرورة اليقظة والنهوض فيما بين أوساط العرب والمسلمين. وزاد من الوعي بأهمية النهوض والخروج من التخلف تلك الواقعة الثقافية الضخمة التي رافقت استعمار الغرب للشرق: واقعة الاتصال بالمدنية الغربية التي خلفت حالة من التوتر الثقافي والعقلي النامي باطراد، وصراعا ما زال فيه ((البحث عن الذات)) وتحديد الهوية الشاغل الأكبر[5] .

وامتدادا لمجهود أولئك، ظهر الشيخ محمد الغزالي على ساحة الفكر العربي الإسلامي المعاصر حيث انصبت عنايته بإشكالية الانحطاط: أسبابها وسبل الخروج منها، حيث لفت انتباه الأمة الإسلامية في العالم الإسلامي عامة وفي مصر خاصة بتراجعها الحضاري وانهيارها عن سيادة البشرية معربا عنها في هذا الصدد: ((إن الأمة الإسلامية هي خمس العالم من ناحية التعداد تبحث عنها في حقول المعرفة فلا تجدها، وفي ساحات الإنتاج فلا تحسها، وفي نماذج الخلق الذكي والتعاون المؤثر والحريات المصونة والعدالة اليانعة فتعود صفر اليدين)).[6] وفي موضع آخر يقول: ((عندنا أزمة فهم، عندنا أزمة فقه...وعندنا مع هذا وذاك أزمة فكر، والمحزن أن الذين يملكون الفكر يملكون السيف...فالمحنة كبيرة في العالم الإسلامي ما بقي السيف قادرا على ضرب الفكر وتحديد إقامته))[7].

ففي بيان الأوضاع الراهنة كثيرا ما انتهج الغزالي مسلك المقارنة بين حالات الأمة الإسلامية المتردية وحالات الغرب المتقدمة، قاصدا وراء ذلك إبراز التباين الهائل بينهما في شتى المناحي من جهة، وتأكيد من جهة أخرى على أن حالات التردي والتراجع لا تجوز في الأولى لأن الأمة الإسلامية تتمتع من إمكانات بشرية ومادية وتمتلك قيما ومباديء دينية سامية، بل والاعتراف الإلهي لها بالخيرية والسيادة. ولهذا تسائل الغزالي ما الذي جعل الأمة الوسط الذي أعلى الله بالحق قدرها تتراجع لتكون في هذا العصر أمة ذنبا تحتف بها المناكر العقلية والهزائم الخلقية.[8]

---

4 Fahmī Jad'ān, *Usus al-Taqaddum 'Inda Mufakkiri al-Islām* (Beirūt: al-Muassasah al-'Arabiyyah li al-Dirāsāt wa al-Nashr, 1981), 9.

5 Fahmī Jad'ān, *Usus al-Taqaddum 'Inda Mufakkiri al-Islām* (Beirūt: al-Muassasah al-'Arabiyyah li al-Dirāsāt wa al-Nashr, 1981), 9.

6 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fī Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql* (Herndon, Virginia: al-Ma'ahad al-'Alami li al-fikr al-Islami, 1991), 190.

7 Muhammad al-Ghazzālī, *Kayfa Nata'āmal Ma'al-Qurān* (Herndon, Virginia: (Khaldun n.d) (Allah 1955) (al-Bahi 1975) (Osman 1965) al-Ma'ahad al-'Ālami li al-Fikr al-Islāmī, 1991), 190-191.

8 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fī Mīzan al-Syar'i wa 'al-'Aql*, 4.

وهذا التراجع الفكري والحضاري من وجهة نظر الغزالي سنح الفرص للعالم المتقدم لاستعباد الشعوب المتخلفة وأولها المسلمون، وأرضهم مصادر للحاخامات التي يحتاج إليها العالم أو الأسواق التي يستهلك ما يصنع.[9] إن السر وراء التقدم الغربي كما يراه الغزالي نتيجة تعمقهم في العلوم الكونية وله أثره في انفتاح أبواب الغنى عليهم. إن القوى والأسرار التي اكتشفوها كانت مفاتيح لخزائن السموات والأرض فلا غرابة في ارتفاع مستوى معيشتهم ولا غرابة في اتساع دائرة الرفاه والنعم لديهم.[10]

وكان الغزالي بهذه العبارة على وعي تام بأن لقاء مصر والعالم الإسلامي بالغرب أشبه بالصدمة الكهربائية بين عالمين مختلفين: عالم غربي: قوي سياسيا ومتقدم علميا ومزدهر اقتصاديا، ومتطلع للمستقبل بكل طموح، وعالم إسلامي: متهافت سياسيا، ومتأخر علميا، وضعيف اقتصاديا، ومشدود إلى الماضي، وفاقد لقدراته في الإبداع والتجديد. وفي مثل هذه الحالات من غياب التكافؤ بين الأطراف، فإن عمليات التثاقف الحضاري *culturation* تفقد صفتها الإيجابية وتتحول كما أشار العلامة ابن خلدون إلى عمليات استلاب ثقافية *inacculturation*، وفرض لمقولات الطرف الأقوى على غريبه الأضعف.[11]

غير أن الغزالي لم يكن منغمسا في رؤيته وانطباعاته إلى الإقبال المطلق لكل ما هو آت من الغرب، مثل دعاة الانصهار التام في حضارة الغرب والمنبهر بمدنيته، كما أنه لم يقف مائلا إلى من رفض تداعيات الغرب رفضا كليا بل اتخذ الغزالي موقفا وسطيا معتدلا في ذلك. فعلى الرغم من إقراره بتفوق الغرب ماديا وحضاريا إلا أن الغرب من وجهة نظره لا يستحق التفوق في مجالات الحياة. إن الغرب من وجهة نظر الغزالي ((...مثل الإنسان الذي عرف الخلق ولم يعرف الخالق والذي يحس أهواءه في بدنه وفي دنياه ولا يدري عن وحي الله شيئا له وزن، ولا يقدم للآخرة شيئا يكون ذخرا. وقد أكد على ذاتية الأمة الإسلامية معربا أنها هي أجدى وأليق بهذا التقدم. ولكن مما يؤسف له الغزالي أن المسلمين ما تذوقوا الحق الذي اصطفاهم الله ولا حملوه إلى الناس كي ينفعوهم به، ونشأ عن ذلك أن جماهير المسلمين فقيرة كسيرة الجانب والثراء الذي ناله بعضهم عادة من الاتصال بالأجانب والعمل لهم أو معهم)).[12]

وقارن الغزالي أيضا أوضاع الأمة المتردية بأوضاع سلفهم الأقدمين الذين نالوا ألمعية فائقة معربا عن ((أن آباءهم الأقدمين تلقفوا الكتاب العزيز وصححوا به مسار الحياة وأبدعوا حضارة أرقى وأزكى مما عرفه

---

9 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fī Mīzan al-Syar'i wa 'al-'Aql*, 7.

10 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fī Mīzan al-Syar'i wa 'al-'Aql*, 27.

11 'Abd al-Rahmān Ibn Muhammad Ibn Khaldūn, *Muqaddimah* (Mesir: Matba'ah Mustafā Muhammad, n.d) 147. Compare the study of Gustave E.von Grunebaum, *Taathur al-Umam al-Islāmiyyah bi Madaniyyah al-Gharb wa Nazariyyah al-Istimdād al-Thaqāfī*, in: Muhammad Khalaf Allāh, al-Thaqāfah al-Islāmiyyah wa al-Hayāh al-Mu'āsirah; Buhūth wa Dirāsat al-Islāmiyyah (Mesir: Maktabah al-Nahdah al-Misriyyah, 1955), 185.

12 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fī Mīzan al-Syar'i wa 'al-'Aql*, 28.

السابقون. والواقع مختلف عما فعله المتقدمون الأخلاف يقرأون القرآن دون وعي ويخرون على آياته صما وعميانا)).[13] وأضاف أن سلفهم الأول قد أدى ما تمكن من واجب البلاغ وعبء التعليم والتربية ، وأما الأخلاف المتأخرون شرع ينطوون على أنفسهم أو يشتغلون بشؤونهم وينسون أنهم شهداء على الناس. وهذا النقص عند الغزالي بدأ ضئيلا ثم تنامى على مر الأيام. فالنتيجة المسلمون بين الخمس أم الربع وهم أغلب سكان القارات لا يدروون شيئا عن رسالة الحق أو يدرون عنها ما لا يشرفها ما لا يغري بالنظر فيها بله اتباعها.[14]

الجذور الأساسية للتراجع الفكري والحضاري

جديرة بالإشادة والتنويه أن أفكار الغزالي فيما ينوط بالجذور الأساسية للتراجع الفكري والحضاري كانت امتدادا لسلسلة المشاريع الإصلاحية التي قام بها المثقفون من قبله. لقد جرد جمال الدين الأفغاني (1838-1897م) همه في فك إشكالية التراجع الفكري والحضاري وربط أسباب ظهورها بالسياسة الإسلامية الضائعة، والفشل في استيعاب العلوم الحديثة، والاقتناع بالتقليد الأبله والاستسلام المطلق لموروث الأباء والأجداد، وقام من أجل الخلاص من هذا المأزق بدعوة إلى مقاومة الاستعمار الغربي والتيارات المناوئة لها، ومقاومة السلطة الاستبدادية، ومطالبة إلى تعلم واستيعاب العلوم الحديثة والتكنولوجيا الغربية.[15]

وبعد وفاة الأفغاني قام بتطوير حركته الإصلاحية والنهضوية تلميذه محمد عبده (1849-1905م)، حيث أرجع التردي الفكري والحضاري الذي عانته الأمة العربية والإسلامية إلى الضعف في التربية والتخلف في وسائل التعليم، فولى عنايته في ذلك، مؤكدا على أهميتها في بناء العقل والخلق والاقتصاد وفي حل التدهور الاجتماعي.[16] خلافا لأولوية اهتمام الأفغاني على السياسة، فإن عبده ولى عنايته الأكثر بتوسيع دائرة العلوم لتشمل العلوم الحديثة والتاريخ وأيديلوجيات الغرب والتي من أجلها يمكن للعرب والمسلمين عموما فهم الغرب وتطوراته.[17]ولذلك نرى أنه سعى جاهدا إلى إصلاح الأزهر إدارة وتعليما، كما قام جديا بإصلاح المواد الدراسية فيه، واثقا منه بأن الأزهر لو صلح صلح الإسلام كله. [18]

---

13 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fī Mīzan al-Syar'i wa 'al-'Aql*, 12.

14 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fī Mīzan al-Syar'i wa 'al-'Aql*, 32.

15 Muhammad al-Bahī, *al-Fikr al-Islāmi al-Hadīth wa Silatuhu bi al-Isti'mār al-Gharbī*('Ābidīn:Maktabah Wahbah, 1975), 76. See the echo of the discourse in : Anwar al-Jundī, al-'Ālam al-Islāmī wa al-Isti'mār al-Siyāsī wa al-Iqtisādī wa al-Thaqāfī (Dār al-Ma'rifah, 1970) 170. Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939* (Cambridge: Cambridge University Press, 1984), 120. Nikki R, Keddie, *An Islamic Response to Imperialism* (Berkeley: University of California Press, 1983), 123.

16 Amin, Osman, "Muhammad Abduh – Islamic Modernist" in *The Contemporary Middle East*, Benjamin & Joseph S. Syzliaiwez ed. (New York : Random House, 1965), 164.

17 H.A.R. Gibb, *Modern Trends in Islam* (New York: Octagon Books, 1972), 339.

18 Charles C. Adams, *Islam and Modernism in Egypt- A Study of the Modern Reform Movement Inaugurated By Muhammad Abduh* (New York: Russell & Russell, 1968), (al-Majzub n.d) (Ushama 1995) (al-Kattani 1992) (al-Ghazzali, Humum Da'iyah n.d) (Hasan 1994) (al-Ghazzali, Huquq al-Insan bayn Ta'alim al-Islam wa 'Ilan al-Umam al-Muttahidah 1993) (al-Ghazzali, al-Tariq Min Huna 1992) (al-Ghazzali, Al-Islam wa al-

ولا يقل نفوذ رشيد رضا (1865-1945م) عن سابقيه في مد وتحريك مشروع الإصلاح. فإن مجلة (المنار) التي أسسها وبدأ إصدارها عام 1898م خير معبر عن مشروعه الإصلاحي والتي ترمي إلى تحقيق هدفين رئيسين هما التجديد والوحدة. لذلك فإن كل ما طوته (المنار) من صفحات يكون مرآة لهذه الأهداف النبيلة، بجانب أنها تبرز علل الأمة الإسلامية وكيفية علاجها وسبل تقوية الأمة الإسلامية.[19] لقد نحا رضا منهجي الأفغاني وعبده من حيث أنه أرجع تخلف العرب والمسلمين إلى غياب الخلافة الإسلامية واستبدال السياسة العلمانية مكانها[20]، وذهاب القيم الإسلامية عند المسلمين[21]، والاستسلام للغرب بالكلية[22]، وضعف التربية ونقصها[23].

ومن أجل التحرر من هذا المأزق دعا إلى استعادة الخلافة الإسلامية، وضرورة تحلي المسلمين بالقيم الإسلامية النبيلة وتخليهم عن القيم الرذيلة، واتخاذ موقف انتقائي نقدي من حضارة الغرب ومدنيته، وإلى ضرورة تعلم سائر العلوم النافعة.

وممن تأثر به الغزالي كثيرا في آرائه التجديدة والنهضوية وله بصماته الكبرى على شخصيته حسن البنا (1906-1949م) مؤسس حركة الإخوان المسلمون في مصر. فلم يكن الغزالي متابعا أفكار البنا الحركية فقط بل كان من أتباعه ومؤيديه الأوفياء.[24]لقد تشخص البنا أن عوامل الانهيار مردها ضياع الحكومة الإسلامية، والفهم الناقص للإسلام، وعملية التغريب والعلمنة، وقلة استيعاب الأمة المصرية العربية للعلوم العصرية، وعدم الاهتمام بالمرأة وغيرها. وناشد من خلال الحركة الإسلامية التي أسسها عام 1928م باسم (الإخوان المسلمون) بالأمور التالية: تكوين جيل جديد يفهم الإسلام فهما شاملا صحيحا ويطبق أفكاره، ومقاومة الحركات الهدامة، وبث الدعوة الإسلامية، وعرض رسالتها العالمية التي يقبلها العصر الحديث، وبذل أقصى جهد لإقامة الدولة الإسلامية التي تطبق فيها الأحكام الشرعية وتنفذ فيها التربية الإسلامية على شكلها العملي مع ضمان استمرارية الدعوة الإسلامية.[25]

Taqat al-Mu'attilah 1983) (al-Ghazzali, Ma'rakah al-Mushaf fi al-'Alam al-Islami 1971) (Kaloti n.d.) (S. A. Kaloti 1974) (Safran 1961) (Sa'ad 1993) (Zaydan 1982) (Marsot 1984) ('Ali 1968) (Lutsky 1971),132.

19 Muhammad Sālih al-Marākisyī, *Tafkīr Muhammad Rasyīd Ridā Min Khilāl Majallah al-Manār* (al- Jazāir: al-Muassasah al-Wataniyyah li al-Kitāb, 1985), 13.

20 Muhammad Sālih al-Marākisyī, *Tafkīr Muhammad Rasyīd Ridā Min Khilāl Majallah al-Manār*, 57.

21 Muhammad Rasyīd Ridā, *al-Wahy al-Muhammadī* (al-Qāhirah: Matba'ah Dār Nahdah, 1956), 11.

22 Emad el-Din Shahin, *Through Muslim Eyes, M. Rasyid Rida and the West* (Herndon, USA: IIIT,1993), 4.

23 Muhammad Rasyīd Ridā, "Ahl al-'Ilm wa al-Ta'lim", *al-Manār* 36.1 (1988), 697.

24 Muhammad al-Majzūb, *'Ulamā' wa Mufakkirūn 'Araftuhum* (Dār al-Syawāf, n.d), 267. See also Muhammad al-Ghazzālī, Qissah Hayāh, in: *Islāmiyyah al-Ma'rifah* (Kuala Lumpur: IIIT), Year 3, no 7, January 1997.

25 Thameem Ushama, *Hasan al Banna Vision and Mission* (Kuala Lumpur: A.S.Nordeen, 1995), 38.

المبحث الثالث: تشخيص الغزالي لأسباب التخلف الفكري والحضاري

من خلال تتبع مؤلفات الغزالي نتوصل إلى أن ثمة عاملين مهمين تشخصهما الغزالي بوصفهما جذورا أساسية لأزمة الفكر الإسلامي المعاصر، وهما عامل داخلي وعامل خارجي. فالعامل الداخلي تمثل في جملة من المشاكل التي نمت في الدوائر الإسلامية ذاتها والتي كانت أهمها: الابتعاد عن مطالب الوحي السماوي، والدخول في الخلافات في ما لا يعني بالأمة العربية الإسلامية، وفشل المسلمين في فهم العالم وفلسفته، والفشل في السيطرة على العلوم والحضارات الأخرى. وأما العامل الخارجي فتمثل في مخططات أعداء الإسلام والمستعمرين في إضعافهم في مختلف الأبعاد. وفيما يأتي تفصيل لتلك العوامل:

أولا: الابتعاد عن الوحي والفشل في فهم الخطاب الإلهي

إن المتأمل في فكر الغزالي النهضوي الإصلاحي يرى اهتمامه الأكيد بدور الوحي وضرورة الاعتصام به. الوحي الإلهي هو المفهوم الجامع لكل خبر منقول عن صاحب الشريعة بالنص أو بالوصف أو بالإقرار.[26] فإن التمسك به والاهتداء به نجاة في الأولى والآخرة.

لفت الغزالي أنظارنا إلى أن السبب الأهم في فشل المسلمين في مناحي حياتية مختلفة عدم استفادتهم من النعمة التي يسرها الله له، أي ما استفاد من الوحي الذي أغناه عن التجارب ومهد له سبيل الكمال، وعلمه كيف يؤدي حق الله وكيف يحتفظ بحق نفسه.[27] هذا فإن الابتعاد عن الوحي وضعف المسلمين في التعامل به والتعايش معه أدى إلى تجمد دعوة القرآن وتوقف رسالة الإسلام من عدة قرون.[28]

هذا، فإن واقعنا الراهن يشهد عواقب وخيمة والتي أفرزها ابتعاد المسلمين عن الوحي الإلهي، فمن بينها انسياق كثير من الناس وراء الخرافات العقدية والفكرية ، واتباع الهوى والشهوة وسعي في الأرض فسادا في مختلف جوانبه، سياسية، واجتماعية، وثقافية وغيرها.

والوحي من وجهة نظر الغزالي قد شرح للمسلمين علاقتهم بربهم وعلاقتهم بالناس. فعرفهم أن الله واحد وأن ما عداه خلق يعنو له، ويهلك إن فقد إيجاده وإمداده وأنهم عائدون إليه البتة، بعد انقضاء آجالهم وأنهم محاسبون على الطريقة التي قضوا بها أيامهم على ظهر الأرض، والوحي الخاتم يقود البشر من بضائرهم إلى كون يدل على الله أو إلى إله تنجلي عظمته في ملكوته وتتضح الآفاق بوحدانيته وامتداد سلطانه[29]

---

26 Muhammad al-Kattānī, *Jadal al-'Aql wa al-Naql fī Manāhij al-Tafkīr al-Islamī* (Dār al-Thaqāfah, 1992), 487.

27 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 12.

28 Muhammad al-Ghazzālī, *Kayfa Nata'amal Ma'al Qurān*, 23.

29 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 46.

واستدل الغزالي بقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.[30]

وانتقد الغزالي الأمة الإسلامية بما لديها من وحي ولكنها لا تحسن صحبته ولا يستضيء بسناه ولا تتعرف منه على حقوق الله وحقوق الناس بل ينظر الناظرون إليها فيجدونها متخلفة عن الركب الإنساني السائر، يجود عليها هذا بآلة وذاك برغيف أو يمتن هذا عليها بدواء تعالج به عللها أو سلاح ترد به العادين عليها، أما إنتاجها لنفسها ودينها فصفر. وهذا الواقع فسره الغزالي بالهزائم النفسية والعلمية وهما أنكى في نظره من الهزائم السياسية والفكرية ويغلب أن تكون هذه نتيجة لذاك.[31]

يؤكد الغزالي أن العقل الإسلامي لو التزم الخط القرآني في المشغول بالملاحظة والتجارب المهتم بالتنقيب والحقائق، الجواب في آفاق الأرض والسماء لكان له شأن آخر ولقدم نجدات صادقة مثمرة للمنهج العلمي الكوني الباحث في المادة لا فيما وراءها. نهج القرآن عند الغزالي لا يتقدمه نهج أحد ويستحيل أن يحمي المسلمون دينهم وأن ينضح إيمانهم إلا إذا تفقهوا في آيات الله العيانية والبيانية جميعا وازدهرت لهم حضارة مدنية وعسكرية تغلب ولا تغلب وتقود ولا تقاد.[32]

هذا، ومما يتحتم إصلاح فكر المسلمين اليوم من وجهة نظر الغزالي ضرورة تعاملهم بالوحي وتعايشهم به من جديد[33]، لأن الوحي يعطي الإطار العام للرسالة الإسلامية ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة ويعين على تثبيت السنن في مواضعها الصحيحة. والإنسان الموصول بالقرآن من وجهة نظره رقيق النظر إلى الكون، خبير بازدهار الحضارات وانهيارها، نير الأذهان بالأسماء الحسنى والصفات العلى، حاضر الحس بمشاهد القيامة وما وراءها مشدود إلى أركان الأخلاق والسلوك ومعاقد الإيمان. [34]

ثانيا: الخلاف في مباحث لم يتطرق إليها السلف والتقعر فيها

إن الأزمة الفكرية ناتجة كذلك عن اشتغال الكثيرين في الكلام عن الخلافيات والمباحث التي لم يتطرق إليها السلف. والتقعر في هذا النوع من المباحث اعتبرها الغزالي خيانة أهل القرآن للقرآن خيانة فاجرة، واتخاذه

---

30 Ghafir 24: 65-64.

31 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 47.

32 Muhammad al-Ghazzālī, *al-Tarīq Min Hunā*, 29.

33 مناقشة الغزالي قضية التعامل مع الوحي تتضح من خلال صفحات كتابه : (كيف نتعامل مع القرآن). وقد عرض منهج تفسير جديد للقرآن وهو التفسير الموضوعي معلقا أنه أجدى طريق لتقديم القرآن وفهمه في هذا العصر. لمزيد من البيان، انظر:

Muhammad al-Ghazzālī, *Kayfa Nata'āmal Ma'al Qurān* (Virginia: IIIT, 1991), *Nahwa Tafsir Mawdui*' (Kaherah: Dar al-Syurūq, 1996).

34 Muhammad al-Ghazzālī, *Humūm Dā'iyah* (Kaherah: Dār Thābit li al-Nashr wa al-Tawzī'), 32.

مهجورا في الوقت الذي أنسوا فيه بباطل من القول وسخف من الجدل. وهم غرقوا في غيبوبة عجيبة من المباحث التي ما عرفها السلف الأول، ولو عرفوها ما أفلحوا أبدا ولا افتتحوا قطرا ولا أنشأوا حضارة.[35]

من تلك المباحث التي ذكرها الغزالي: إكثار الكلام في بعض الجوانب الدينية، وإظهار الخلاف بين الفقهاء. والمثال الأكثر وضوحا استغراق شرح الصلاة شهرا وقد يطول الحديث في الوضوء والغسل قريبا من هذه المدة. فالعبادات وعلومها في رأي الغزالي ليست بحرا طاما لا ساحل له إنها في الدين سهلة الفهم والأداء وعلى المسلم بعد تعليمها ومعرفتها تكرار ما أمر به سائر عمره ليفيد من هذا التكرار أدب النفس وسكينة الروح وتماسك الجماعة وإقامة أمة متعارفة على منهاج وهدف.[36]

الأمة الإسلامية ينبغي وأن تهتم بالرسالة الإسلامية بدلا من التورط في الخلافيات التي تضيع الوقت وتؤدي إلى تدهورهم في مجالات الحياة. إن هذه الأمة من وجهة نظر الغزالي أمة تحمل رسالة تشمل الإنس والجن.[37] والرسالة كما شرحها الكتاب فعل الخير والدعوة إليه وعمل المعروف، ومعنى الخير مركوز في فطرة البشر وقد يضبطه الوحي الإلهي ويزيل ما يشوبه من لبس وكذلك معنى المعروف فإن العقل والنقل يتطابقان غالبا على إبرازه ودعمه وهذه الرسالة لا شيء إلا لإرضاء الله وإقرار الحق.[38]

ثالثا: الفشل في فهم الرؤية الإسلامية للعالم والعلاقة بينه وبين الإنسان

التخلف الفكري والحضاري كذلك ناتج عن فشل الأمة الأسلامية في استيعاب الرؤية الإسلامية للكون والحياة، ذلك العنصر الأساس في تحديد الهوية الإنسانية وفلسفة الحياة والبنى الحضارية.[39] العالم خلقه تعالى تسخيرا للإنسان في أداء وظيفته الاستخلافية، وصلته بالإنسان صلة قرابة لا خصومة، صلة استثمار لا احتكار، صلة انتفاع لا ضرار، وصلة بناء لا هلاك.والانسان مؤتمن على العالم، وعليه تسييره وفقا لمراد خالقه،وطبقا لشريعته.

ففي هذا الصدد نبهنا الغزالي إلى أن الإسلام دائما يوثق العلاقات بين الإنسان وبين هذا الكون ويشد حواسه وبصيرته إلى ما يحفل به هذا العالم من أسرار وقوانين حتى لا يعيش محجوبا ولا جاهلا.[40]

---

35 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fī Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 10.

36 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 24-25.

37 Muhammad al-Ghazzālī, *al-Tarīq Min Hunā*, 87.

38 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 89.

39 Muhammad Kamal Hasan, , "The Islamic Worldview", in *Towards a Positive Islamic Worldview: Malaysian and American Perceptions*, ed. Abdul Monir Yaacob & Ahmad Faiz Abdul Rahman (Kuala Lumpur: IKIM, 1994), 12-33.

40 Muhammad al-Ghazzālī, *Huqūq al-Insān Bayn Ta'ālīm al-Islām wa I'lān al-Umam al- Muttahidah* (Iskandariah: Dār al-Da'wah, 1993), 205.

لقد فصل الغزالي العلاقة ما بين فهم العالم والإيمان الصحيح مبينا أن الإيمان ليس تخمينات عقل ضرير محبوس في قفص من الأوهام الذاتية. بل إنه أثر اشتباكات الإنسان مع الحياة والأحياء، ونظراته الدائبة الفاحصة لإدراك كل شيء والإحاطة بما وراء كل شيء.[41] إن أساس الثقافة الإنسانية من وجهة نظره هو معرفة الكون والحياة بيد أن هذه المعرفة وسيلة إلى معرفة أعظم هي معرفة خالق الكون والحياة ورب كل شيء ومليكه رب العالمين. فمن عرف الحياة وتأدى منها إلى الإيمان بالخالق الكبير فهو إنسان، أما من لم يعرف هذا العالم أو عرفه بطريقة مقلوبة لاتصاله بالله فهو حيوان أو شيطان.[42]

كما فصل خلق العالم من وجهة نظر قرآنية وأنه لا يخلق عبثا بل له أهداف. فمن تلك الأهداف الرئيسة التي استعرضها الغزالي: دليل على عظمة الله وذلك عندما ينظر الإنسان النظر الدائب والمتفحص عن مادة الكون، وكذلك نظامه وضبطه الذي لا يطرأ عليها خلل ولا فوضى[43]. ومن أهدافه إمكانية استفادة الإنسان من خيرات العالم ومنتجاته، ولذلك كان بينه وبين الإنسان ارتباط وثيق. لقد عرض الغزالي الآيات القرآنية الدالة على العلاقة الثنائية بين الإنسان والكون، فمنها قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(33) ﴾.[44]وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(13) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(14)﴾.[45]

ولكن مما يدعو للكآبة من وجهة نظر الغزالي ((أن المسلمين اليوم آخر من يعلم هذه الحقيقة الواضحة – حقيقة وجود العلاقة المتبادلة بين الإنسان والكون–، وغيرهم نقب في البلاد فاستخرج الغالي والرخيص وارتفقه وباع ما يفضل عنه. وأما الأمة الإسلامية فإنها تمشي فوق أراض ملآى بالنفط والحديد والذهب ولا تدري ما حوت. حتى يجيء من يرى أن الأرض له ليثيرها فتعطي كنوزها ينفق منها ما يشاء، ثم يرمي لنا الفضلات في كبر وتأفف))[46]. وأضاف ((إن الشلل الذي أصاب أيدي المؤمنين في ساحات الإنتاج في فكر الغزالي جعلهم يجار عليهم ولا يجيرون، ويؤخذ منهم ولا يعطون ويتقدم غيرهم ويتأخرون. واستخلص الغزالي الوضع قائلا: إن هذا كله حط قدرهم وقدر الدين معهم)).[47]

---

41 Muhammad al-Ghazzālī, *Huqūq al-Insān*, 207.
42 Muhammad al-Ghazzālī, *Huqūq al-Insān*, 208.
43 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 20.
44 Al-Nāzi'āt 30: 30-33.
45 Al-Nahl 14: 13.
46 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 22.
47 Muhammad al-Ghazzālī, *al-Tarīq Min Hunā* (al-Qāhirah: Dār al-Syarq, 1992), 20.

ومن أهداف أخرى لخلق الكون وفهمه والانتفاع به حماية الحقوق والحقائق. بين الغزالي أن الويل للأمة الإسلامية يوم يكون أهل البيت مسلحين بالحجارة، واللصوص مسلحون بقذائف قريبة المدى أو بعيدة المدى، سينهب الحق وتطمس الحقيقة. لقد وصف الله خواص الحديد ومنافعه المدنية والعسكرية [48]فقال: ﴿..وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)﴾.[49] وعلى ضوء هذه الآية الكريمة تسائل الغزالي هل ينصر الله ورسله قوم لا علاقة لهم بحديد ولا خشب في هذا العصر اتسعت ساحات الحروب حتى شملت البر والبحر والجو ومن المستحيل أن ينجح في هذه الميادبن إلا ذوو الثقافات الغريزة المستبحرة المستكشفة.[50]

رابعا: الفشل في استيعاب العلوم الكونية وحضارات أخرى

وجود وعي جمعي مشترك بين الغزالي ورواد الإصلاح الآخرين في رد إشكالية التراجع الفكري وأزمته إلى الضعف الهائل والفشل الشائع في استيعاب العلوم الكونية فيما بين الأمة العربية الإسلامية، وهذا خلافا للآخرين غير المسلمين الذين انكبوا مستمرين على دراسة أحوال المسلمين وتفوقوا فيها. وقد أعرب قائلا: ((...وأن من الأخطاء التاريخية التي أساءت إلى المسلمين طويلا جهلهم بغيرهم وقصورهم عن إدراك أحوالهم العامة. وقد يكون هذا الغير خصما ضاغنا أو عدوا مزعجا. وكانت دراسة المسلمين للآخرين صفرا مع أن الآخرين كانت تعلي مراجلهم ولا يفتئون يفكرون في النيل منهم والإتيان على دينهم من القواعد))[51].

لحل الواقع الملموس نادى الغزالي الأمة الإسلامية للسيطرة على العلوم كلها، وأكد أن الخدمة إلى القرآن تحتاج بجانب الإلمام بالعلوم الشرعية واللغوية إلى علوم الأحياء والفيزياء والفلك وطبقات الأرض وغيرها. وهي – مع كونها خيانة دينية– خيانة إنسانية عامة لرسالة آدم الذي ألهم الأسماء كلها وجعلت له الأرض ذلولا وساد فيها البر والبحر.[52] وفي مكان آخر قرر الغزالي أن العلم يستحيل أن يخاصم الدين أو يخاصمه الدين، وقضية النزاع الموهوم بين العلم والدين لا صلة لها بالدين الصحيح[53]. لتسهيل القضية عرض الغزالي القياس العقلي المنطقي لما كان الذي أجرى السحاب هو الذي أنزل الكتاب، ولما كان خالق العالمين هو الذي أوحى ذلك القرآن الكريم فإنه من الممتنع أن يصف خلقه في وحيه بغير الحق.[54]

---

48 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 22.
49 Al-Hadīd 27: 25.
50 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 22.
51 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 36.
52 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 25.
53 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikrī fi Mīzān al-Syar'i wa al-'Aql*, 8.
54 Muhammad al-Ghazzālī, *al-Islām wa al-Tāqāt al-Mu'attilah* (ʻĀbidīn: Dar al-Kutub al-ʻIlmiyyah, 1983), 90.

لقد أفاض الغزالي الحديث عن الصلة بين الدين والعلم الحديث معربا عن أن من دراسة الكون والحياة أصاب المسلمون الحق من وجوه أولها: إنهم نزلوا على منطق كتابهم في فهم الكون وقوانينه والمادة وخواصها. وآخرها: إنهم استأنفوا السير في الطريق الذي مشى فيه آباؤهم من قبل، وأسدوا فيه للعالم أيادي بيضاء في شتى العلوم والفنون. لذلك ناشد بضرور إدمان الأمة في البحث في خصائص الأشياء وأسرار الأرض والسماء، وأن تكرس لذلك أخصب العقول وأعظم الطاقات. فإن ذلك – مع كونه استجابة لتعاليم الوحي – من أهم الوسائل لإنجاح رسالتها ودعم معيشتها.[55]

من البيان المذكور يتضح الموقف الإيجابي الوسطي الذي اتخذه الغزالي نحو العلم الحديث. وكان على نفس الدرب الذي سلكه الأفغاني[56] ومحمد عبده[57] وآخرين غيرهم في القول بائتلاف وتعاضد بين مقررات الوحي ومنجزات العلم الحديث.

خامسا: الغزو الفكري

وكان يمثل العامل الخارجي الذي أسهم في تخلف الأمة الفكرية والحضارية. وكان له آثاره السلبية على المسلمين. لقد بدأ تعرض مصر لهذا الغزو الثقافي والفكري نتيجة حملة نابليون العسكرية عام 1798م وهي بداية تسلل الاستعمار الغربي إلى العالم الإسلامي وأول احتكاك مباشر بين العالمين: الغربي والعربي على نطاق واسع[58] ونقطة تحول تام وبداية انعطاف في تاريخ الشعوب المسلمة في الشرق الأوسط[59]. وليست الحملة حملة عسكرية فحسب بل كانت حملة علمية كذلك، إذ حمل نابليون معه فئة لا يقل عددهم عن مائة من رجال العلم ونوابغ علماء فرنسا ومستشرقيها[60].ومن خلال ما نفذه نابليون من مشاريع تحديثية متعددة بدأ يتعرض المصريون لأول مرة لنظم أوروبا السياسية ولأنماط حياتها الفكرية والعلمية والتكنولوجية بشكل مباشر.

---

55 Muhammad al-Ghazzālī, *Ma'rakah al-Mushaf fi al-'Ālam al-Islāmī* (Misr: Dār al-Kutub al-Hadīthah, 1971), 181.

56 يرى جمال الدين الأفغاني أن ما أدى إلى تقدم الغرب وتطوره سيطرته على الدراسات الحديثة والعلوم، وقد نبه الأفغاني على أهمية استيعاب المسلمين على هذه العلوم بوصفها عانلا مهما في تحررهم من التخلف والانحيار، يرى أن ما دام المسلمون أعداء للدرسات الحديثة والعلوم يتعرضون للفشل والتخلف .

Sami 'Abdullah Kaloti, "The Reformation of Islam and the Impact of Jamaluddin al Afghani and Muhammad 'Abduh on Islamic Education", (Phd Dissertation, Marquette University, 1974), 85.

57 Nadav Safran, *Egypt in Search of Political Community:1804-1952* (Cambridge: Harvard University Press, 1961), 61.

58 Husayn Sa'ad, *Bayn al-Asālah wa al-Taghrīb fi al-Ittijāhāt al-'Ilmāniyyah 'inda Ba'd al-Mufakkirīn al-'Arab al-Muslimīn fī Misr* (Beirūt: al-Muassassah al-Jāmi'iyyah li al-Dirāsāt wa al-Nashr wa al-Tawzī', 1993), 16.

59 'Alī Muhammad al-Naqwī, *al-Ittijāh al-Gharbiy 'alā Mindhar Ijtimā'i* (Tehran: Rābitah al-Thaqāfah wa al-'Ilāqat al-Islāmiyyah, 1997), 43.

60 Jurjī Zaydān, *Tārīkh Misr al-Hadithah* (Beirūt: Dār al-Jīl, 1982), 523-524.

ويليه مشروع محمد علي باشا التحديثي والنهضوي في مجالات عدة عسكرية وتربوية. معروف عند المؤرخين أن محمد علي باشا هو الأب المؤسس لمصر الحديثة والمسؤول عن جعل مصر قريبا من أوروبا على الرغم من سياسته القاسية.[61]فانطلاقا من اعجابه بمدنية فرنسا وحضارتها، قام باكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف عند عوامل تفوقه ومقدرته. من أشهر إجراءاته إرسال البعثات العلمية إلى الديار الأوروبية لإعداد خبراء وصناع مدربين من بين المصريين في كل النواحي المختلفة.[62] لهذا المشروع تأثيراته الخاصة في إظهار طبقة جديدة من المثقفين المتشبعين بالثقافة الغربية من ذوي الصلات الأدبية والثقافية مع الغرب وتلقيهم سائر العلوم بعلماء الغرب وقراءتهم أمهات الكتب الغربية. وقد عينوا عند عودتهم إلى مصر ضباطا وموظفين، واشتغلوا بوصفهم مدراء ومهندسين في المؤسسات الحكومية وتقلد بعضهم منصب وزير[63]. وبهذه المهمات أدوا دورا بارزا في تطوير الحياة العلمية والثقافية في مصر وتعريف أساليب الحياة الغربية بين أوساط المصريين وغرس نواة الانبهار بمدنية أوروبا، تلك الحالات التي هيأت أساسا مهما لنشأة الاتجاه التغريبي.

وقد اسهم في تطوير الغزو الفكري والثقافي كذلك المستشرقون الذين توافد كثير منهم على مصر منذ فترات نابليون ومحمد علي فاشا. وقد استأثر الإسلام والتراث العربي باهتمام خاص من قبل المستشرقين وشغلت مصر جانبا كبيرا من هذا الاهتمام. فمن خلال دراستهم عن المجتمعات الشرقية عموما ومجتمعات مصر خصوصا، ومن خلال مناهج بحثهم المليئة بالتشويه والتشكيك بالموروثات العربية الإسلامية قاموا بنشر المفاهيم الإسلامية المشوهة بين الدوائر المصرية، وأشاعوا عظمة الغرب المسيحي، وهيمنته الحضارية والثقافية والعلمية فيما بينهم، وقاموا بتنشيط التيار العلماني في المجتكع العربي الإسلامي. ومن أشهر هؤلاء المستشرقين ليتمان Littmann، وسنتلانا Santillana ، ونالينو Nallino الذين كانت جهودهم مثمرة عند رعيل من المفكرين المصريين مع بدايات القرن العشرين أمثال: أحمد لطفي السيد، وطه حسين، وعلي عبد الرازق، وقاسم أمين وغيرهم، وغدوا بعد اتصالهم وقراءتهم مؤلفات هؤلاء دعاة التغريبية المعجبين بالغرب والحاقرين لحضارة الذات والشاكين بموروثاتها.[64]

---

61 Marsot, ‘Affāf Lutfī al Sayyid, *Egypt in the Reign of Muhammad ‘Ali* (Cambridge: Cambridge University Press, 1984), 55.

62 Muhammad Kurd ‘Alī, *al-Islām wa al-Hadārah al-‘Arabiyyah* (al-Qāhirah: Matba’ah Lajnah al-Ta’līf wa al-Tarjamah wa al-Nashr, 1968) 1/373.

63 Vladimir Borisovich Lutsky, *Tarīkh al-Aqtār al-‘Arabiyyah al-Hadīthah*, translated by ‘Afīfah Bustanī (Moscow: Dar al-Taqaddum, 1971), (Hitti 1953) (al-Ghazzali, Jura'at Jadidah min al-Haqq al-Murr 1996) (al-'Ulwani 1997), 73.

64 Philip Hitti, *al-Ittijah al-Hadith fi al-Islam*, in al-Islam fi Nadhar al-Gharb, trans: Ishaq Musa al-Husayni (Beirut: Dar Beirut li al-Tiba’ah wa al-Nashr, 1953). See also Manahij al-Mustasyriqin fi al-Dirasat al-‘Arabiyyah wa al-Islamiyyah, in (Riyadh: Manshurat al-Munazzamah al-Arabiyyah li al-Tarbiah wa al-Thaqafah wa al-‘Ulum wa Maktab al-Tarbiah al-‘Arabi al-Khaliji, 1985), 397.

ففي معرض الحديث عن خطورة الغزو الفكري والثقافي يقول الغزالي: ((على الرغم من انسحاب الاستعمار من أراض المسلمين ولكن سكانها امتلأت نفوسهم به وارتبطوا ماديا وأدبيا بمواريثه. فهم راكنون إليه معتمدون عليه. ولتحقيق أهدافه الخبيثة قام المستعمرون بخطط متعددة. فمنها: فرض لغته وجعلها لغة المكاتبات في الدواوين ولغة الدراسة في جميع المراحل التعليمية ولغة التخاطب المحترم في البيوت والشوارع، وربما هادن اللهجات المحلية إلى حين ولكن يعلن مقته للغة العربية، ويتجاوزها في كل محفل ويؤخر رجالها عن عمد، ولا سيما إذا كان المسلمون فوق تسعة أعشار السكان، ومن هنا كانت لغة السنغال والإنجليزية لغة نيجيريا، أما لغة القرآن فهي منبوذة أو مهملة.[65] وقد نشأ عن ذلك أن المسلم في هذه الأقطار محجوب عن التراث الإسلامي لأنه مدون باللغة العربية. وأنه إذا رأى أن يقرأ شيئا عن الإسلام فعن طريق الإفك الذي سطره المستشرقون والمبشرون بإحدى اللغتين العالميتين، الإنكليزية أو الفرنسية فضيعوا الأجيال الجديدة.

ومع حركة الإفناء المرسوم للغة القرآن الكريم قامت حركة اقتصادية بارعة جعلت الإنتاج صناعيا أو زراعيا في أيدي السادة الأجانب أو في أيدي العناصر الموالية لهم، فهم ملاك الحقول وهم ملوك الصناعات التحويلية أو التجميعية وهم مديرو المصارف والشركات. وقد فقه المستعمرون هذه الحقيقة، فدسوا أصابعهم في منابع الثروة ومصارفها وأشعروا أهل البلاد أن الرغيف الذي يأكلون والثوب الذي يرتدون والمرافق التي يستخدمون في يد أولئك المستعمرون المهرة وأن البعد عنهم طريق الضياع.[66] نهاية الغزو الفكري والثقافي أقبح من الغزو العسكري. فقد انهزم الألمان واليابان عسكريا ولكن بقيت شحصيتها وعادت قوية في مدة لا تزيد عن أربعة عقود. ولكن الغزو الفكري لهذه الأمة قضى على شخصيتها، وكانت آثارها ظاهرة في نواحي متعددة.[67]

هذا، ولإعادة الفكر الإسلامي إلى نصابه اقترح الغزالي بعدة مقترحات لحل الأزمة الفكرية ودور الأمة الإسلامية فيها، وهي كالآتي :

1-سبر الارتقاء الثقافي والإحاطة بالآماد التي بلغها الغرب حتى تعرف الأمة الإسلامية من تخاطب وماذا تقول.

---

65 Muhammad al-Ghazzālī, *al-Tarīq Min Hunā*, 11.

66 Muhammad al-Ghazzālī, *al-Tarīq Min Hunā*, 12.

67 Muhammad al-Ghazzālī, *Jura'āt Jadīdah min al-Haqq al-Murr* (al-Qahirah: Nahdah Misr li al-Tibā'ah, 1996), 194.

2- إدراك المستوى العمراني والصناعي والحضاري الذي يسود العالم من حول الأمة الإسلامية فإن من الهزل أن تعرض الإسلام أمم متخلفة ينظر إليها غير المسلمين شزرا ولا تستطيع أن تساند حقها بدعائم مادية أو علمية.

3- دراسة التيارات السياسية والقوى العسكرية التي حظى بها غير المسلمين وتقدير كل ما تقدمه للأديان والمذاهب الأخرى من دعم ووضع ذلك تحت أنظار المسؤولين.

4- محاربة الغش الثقافي والانحراف الفكري اللذين أبعدا الأمة الإسلامية عن كتاب ربها وسنة نبيها وعلها صورة مشوهة للدين الحق وأعجزها عن نصرته.

5- إعادة بناء الأمة الإسلامية على أساس أن الوحي حياة وأن دراسة الكون أهم ينابيع الإيمان وأن حسن استغلاله كسلاح اقتصادي وعسكري خطير.

6- غربلة التراث الإسلامي الذي آل إلي الأمة الإسلامية لاستبقاء ما يوافق الكتاب والسنة واستبعاد ما عداه .[68]

خلاصة

تبدى لنا مدى اهتمام الغزالي بهموم المسلمين والمآزق التي يعانون منها والتي يتطلب الحل السريع. وهذا الاهتمام – من وجهة نظر العلواني– لا شك وأنه منطلق على غيرة الغزالي الصادقة على "الأمة القطب" التي انتمى إليها بعقله وقلبه ووجدانه فضلا عن دمه وجسده، غيرة صادقة على دينها وأرضها وعرضها وأبنائها وماضيها وتاريخها وحاضرها ومستقبلها ووحدتها.[69]

ففي بيان الأوضاع الفكرية والحضارية المأزومة توصل الباحث إلى أن الغزالي قارن بين أوضاع العالم الإسلامي المتدهورة وبين أوضاع العالم الغربي المتقدمة قاصدا وراء ذلك إيقاظ المسلمين من سباتهم وغفلتهم العميقة وقبول هذا الواقع الملموس المشاهد من جهة، وبتأكيد من جهة أخرى على أن التفوق والألمعية كانت أصلا ملكا لهم ، وأن إشكالية الانحطاط الفكري والحضاري لا يجوز أن تحيط بهم كما أنها لا تجوز أن تنسب إليهم. وقد قارن أيضا بين أوضاعهم القائمة المتدنية وبين أوضاع سلفهم الأول قاصدا وراء ذلك بيان أن المحور الأساس في التقدم والخروج من التخلف الفكري والحضاري تمثل في تخطي تلك الأسباب التي أرسى إطارها الوحي.

لقد توصل البحث كذلك إلى أن إشكالية التخلف الفكري والحضاري من وجهة نظر الغزالي مردها تلك العوامل الداخلية التي تمثلت في الابتعاد عن الوحي، والفشل في فهم الكون وفلسفته، والدخول في الخلافيات

---

68 Muhammad al-Ghazzālī, *Turāthuna al-Fikri fī Mīzān al-Syar'i wal al-'Aql*, 37-38

69 Taha Jābir al-Ulwanī, Syaikhuna Muhammad al-Ghazzālī Rahimahullah wa Safahāt Min Hayātih, in: *Islāmiyyah al-Ma'rifah*, Year 2, no. 7 (1997), 5.

التي لا أساس لها، في حين أن العوامل الخارجية فإنها تشخصت في الغزو الفكري والثقافي الذي تسلل في الدوائر الإسلامية العربية وتركت بصماتها الكبرى السلبية على عقلية الأمة الإسلامية. غير أن الغزالي قد لفت انتباهنا أكثر للعوامل الداخلية وذلك باستعراضه الدقيق تلك العوامل وأسباب ظهورها وعواقبها، قاصدا وراء ذلك غرس الوعي الجمعي للأمة بأن أمر التغيير والإصلاح يتطلب من أن يأتي من داخلية الأمة نفسها، فإذا صلح الداخل صلح الخارج وتغير.

لقد كان الغزالي يتحرى الوسطية في آرائه وانطباعاته النهضوية، حيث أنه حاول التوسط بين الموقفين المتقابلين هما: الرفض المطلق لمدنية الغرب وحضارته والتي ناشده المناهضون لفلسفة الحداثة باعتبارها نتاج ثقافة غربية لها مرتكزاتها التي لا يمكن الأخذ بها واعتمادها من وجهة النظر الإسلامية وبين موقف النقيض المقابل للأول حيث دعا أتباعه المعروفون بدعاة التغريبية الكاملة إلى اعتماد مرتكزات الحداثة الغربية وفلسفتها العامة والانصهار التام فيها .وكان الغزالي على وسطية بينهما والذي أكد القول على أن الإسلام هو دين العلم والمدنية والترقي والتقدم وقام بالجمع والتوفيق بين معطيات مدنية الغرب والإسلام والتمييز بين ما فيها من غث وثمين.

Bibliography

Adams, Charles C. 1968. *Islam and Modernism in Egypt- A Study of the Refom Movement Inaugurated by Muhammad Abduh.* New York: Rusell & Russell.

al-Bahi, Muhammad. 1975. *Al-Fikr al-Islami al-Hadith wa Silatuhu Bi al-Istimar al-Gharbi.* 'Abidin: Maktabah Wahbah.

al-Faruqi, Ismail. 1985. *Islamization of Knowledge-General Principles and Work Plan.* Washington: IIIT.

al-Ghazzali, Muhammad. 1983. *Al-Islam wa al-Taqat al-Mu'attilah.* `Abidin: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.

—. 1992. *al-Tariq Min Huna.* al-Qahirah: Dar al-Syarq.

—. n.d. *Humum Da'iyah.* Kaherah: Dar Thabit lil al-Nashr wa al-Tawzi`.

—. 1993. *Huquq al-Insan bayn Ta'alim al-Islam wa 'Ilan al-Umam al-Muttahidah.* Iskandariah: Dar al-Da'wah.

—. 1996. *Jura'at Jadidah min al-Haqq al-Murr.* al-Qahirah: Nahdah Misr li al-Tiba`ah .

—. 1991. *kayfa Nata'amal Ma'a al-Quran.* Herndon, Virginia: al-Maahad al-'Alami li al Fikr al-Islami.

—. 1971. *Ma'rakah al-Mushaf fi al-'Alam al-Islami.* Misr: Dar al-Kutub al-Hadithah.

—. 1991. *Turathuna al-Fikri fi Mizan al-Syar'i wa al-'Aql.* Herndon, Virginia: al-Maahad al-'Alami li al-Fikr al-Islami.

'Ali, Muhammad Kurd. 1968. *al-Islam wa al-Hadarah al-'Arabiyyah.* al-Qahirah: Matba'ah Lajnah Ta'lif wa al-Tarjamah wa al-Nashr.

al-Kattani, Muhammad. 1992. *jadal al-'Aql wa al-Naql fi Manahij al-Tafkir al-Islami.* Dar al-Thaqafah.

Allah, Muhammad Khalaf. 1955. *Al-Thaqafah al-Islamiyyah wa al-Hayah al-Mu'asirah.* Mesir: Maktabah al-Nahdah al-Misriyyah.

al-Majzub, Muhammad. n.d. *'Ulama wa Mufakkirun 'Araftuhum.* Dar al-Syawaf.

al-Marakisyi, Muhammad salih. 1985. *Tafkir Muhammad Rasyid Rida min Khilal Majallah al-Manar*. al-Jazair: al-Muassassah al-Wataniyyah li al-Kitab.

al-'Ulwani, Taha Jabir. 1997. "Syeikhuna Muhammad al-Ghazzali Rahimahullah wa Safahat Min Hayatih," *Islamiyyah al-Ma'rifah* 5.

Gibb, H.A.R. 1972. *Modern Trends in Islam.* New York: Octagon Books.

Hasan, Muhammad Kamal. 1994. "The Islamic Worldview." In *Towards a Positive Islamic Worldview: Malaysian and American Perceptions*, by Abdul Monir Yaacob & Ahmad Faiz Abdul Rahman, 12-33. Kuala Lumpur: IKIM.

Hitti, Philip. 1953. "al-Ittijah al-Hadith fi al-Islam." In *Al-Islam fi Nazar al-Gharb*, by Ishaq Musa al-Husayni (trans), 397. Beirut: Dar Beirut li al-Tiba'ah wa al-Nashr.

Jad'an, Fahmi. 1981. *Usus al-Taqaddum 'Inda Mufakkiri al-Islam.* Beirut: al-Muassassah al-'Arabiyyah li al-Dirasat wa al-Nashr.

Kaloti, Sami 'Abdullah. n.d.

Kaloti, Sami Abdullah. 1974. *The Reformation of Islam and the Impact of Jamaluddin al-Afghani and Muhammad 'Abduh on Islamic Education.* Marquette University .

Khaldun, `Abd al-Rahman Ibn Muhammad Ibn. n.d. *Muqaddimah.* Mesir: Matba'ah Mustafa Muhammad.

Lutsky, Vladimir Borisovich. 1971. *Tarikh al-Aqtar al-'Arabiyyah al-Hadithah.* Moscow: Dar al-Taqaddum.

Marsot, `Affaf Lutfi al-Sayyid. 1984. *Egypt in the Reign of Muhammad 'Ali.* Cambridge: Cambridge University Press.

Osman, Amin. 1965. "Muhammad Abduh-Islamic Modernist." In *The Contemporary Middle East*, by benjamin & Joseph S. Syzliaiwez, 164. New York: Random House.

Rida, Muhammad Rasyid. 1956. *al-Wahy al-Muhammadi.* al-Qahirah: Matba'ah dar Nahdah.

Sa'ad, Husayn. 1993. *Bayn al-Asalah wa al-Taghrib fi al-Ittijahat al-`Ilmaniyyah `inda Ba'd al-Mufakkirin al-`Arab al-Muslimin fi Misr.* Beirut: al-Muassassah al-Jami'iyyah li al-Dirasah wa al-Nashr wa al-Tawzi`.

Safran, Nadav. 1961. *Egypt in Search of Political Community: 1804-1952.* Cambridge: Harvard University Press.

Shahin, Emad el-Din. 1993. *Through Muslim Eyes-M Rasyid Rida and the West.* Herndon, USA: IIIT.

Siddiqi, Mazheruddin. 1982. *Modern Reformist Thought in the Muslim World.* Pakistan: Islamic Research Institute.

Ushama, Thameem. 1995. *Hasan al-Banna Vision and Mission.* Kuala Lumpur: A.S Nordeen.

Zaydan, Jurji. 1982. *Tarikh Misr al-Hadith.* Beirut: Dar al-Jil.